

سه أعلام القضاء

الشيخ بكر بن عبد الله
أبوزيد

إعداد:

حماد بن عبد الله بن محمد الحماد *

* كاتب العدل في كتابة العدل الثانية بالرياض.

ما زالت تراجم العلماء تُعد مصدرًا ثرياً للعلم والمعرفة وقدوة ماثلة في مجاهدة النفس على استغلال الأوقات والمنافسة في جمع المكاسب الأخروية .
ومن ضمن سلسلة أعلام القضاء نستعرض حياة قاضٍ وعالم ومؤلف أمضى عمره بين محراب مسجده ومكتبته . وُلِّيَ القضاء والإمامة للمسجد النبوي ، وتقلد وكالة وزارة العدل ثم الإفتاء فلم تشغله المناصب عن تحصيل العلم وبذله في سيرة قلَّ أن تجد مثلها في هذا الزمان . وفيما يلي استعراض لسيرة هذا العالم :

نسبه ومولده

هو بكر بن عبدالله أبو زيد بن محمد بن عبدالله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد ، ينتهي نسبه إلى بني زيد ، ولد عام ١٣٦٥هـ في شقراء .

دراسته وطلبه للعلم:

درس في الكتاب في بلده شقراء حتى السنة الثانية الابتدائية ثم انتقل إلى الرياض عام ١٣٧٥هـ وفيه واصل دراسته الابتدائية حتى أكملها ثم التحق بالمعهد العلمي بالرياض ودرس فيه المتوسطة والثانوية وتخرج منه عام ١٣٨٤هـ .
وكان من أبرز المحطات العلمية في تاريخ الشيخ بكر التي شكّلت فكره وجعلت منه

بعد توفيق الله العالم الذي عرفه الناس بمؤلفاته الرصينة، عمله بعد تخرجه من المعهد العلمي أميناً للمكتبة العامة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية. وقد تمكن بذلك من الالتقاء والاستفادة من العلماء السابقين واللاحقين، وذلك خلال استفادته من كتب أهل العلم في المكتبة، ومن العلماء الذين يتتابون المكتبة من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ومن يُدرّس فيها ويُدرّس في المسجد النبوي.

كان الشيخ بكر - رحمه الله - حريصاً عن التلقي من العلماء، ومن أبرز من قرأ عليهم، وأخذ منهم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز - رحمه الله - فقد قرأ عليه كتاب الحج من (المتقى) للمجدد ابن تيمية في حج عام ١٣٨٥ هـ بالمسجد الحرام.

وفي المدينة قرأ على سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز أيضاً في (فتح الباري) و(بلوغ المرام) وعدد من الرسائل في الفقه والتوحيد والحديث في بيته إذ لازمه نحو سنتين وأجازه. واستجاز فضيلته الشيخ سليمان بن عبدالرحمن بن حمدان المدرس بالمسجد الحرام فأجازه إجازة مكتوبة بخطه لجميع كتب السنة.

ولازم الشيخ العلامة محمد أمين الشنقيطي - العالم المعروف صاحب أضواء البيان - نحو عشر سنين منذ انتقل إلى المدينة المنورة حتى توفي الشيخ في حج عام ١٣٩٣ هـ - رحمه الله تعالى - فقرأ عليه في تفسيره (أضواء البيان) ورسائله (آداب البحث والمناظرة)، وأخذ عن علم النسب عنه فقرأه عليه (القصص والأهم) لابن عبدالبر وبعض الرسائل وله معه مباحثات واستفادات. كما كان له مجالسات ومباحثات واستفادات من شيخه العلامة ناصر الدين الألباني حينما كان في المدينة، وفي مجيئه للعمرة والحج، وبعد عودته إلى الشام.

وكان حريصاً على الالتقاء بالعلماء من شتى أقطار العالم الإسلامي ومناقشتهم

والاستفادة منهم ، وقد كان الشيخ ذو اهتمام بالإجازات ولديه نحو عشرين إجازة من علماء الحرمين والرياض والمغرب والشام والهند وإفريقيا وغيرها وقد جمعها في ثبوت مستقل ، وكان مع حرصه على حضور الدروس ومجالس العلماء والقراءة ، حريص على التحصيل عن طريق الدراسة النظامية فقد التحق في عام ١٤٠٠ هـ بالمعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام ونال منه شهادة الماجستير منتسباً وأيضاً أكمل في المعهد ونال منه في عام ١٤٠٣ هـ شهادة الدكتوراه .

أعماله ووظائفه التي شغلها:

- ١- في عام ١٣٨٤ هـ عُيِّن أميناً عاماً للمكتبة في الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية .
- ٢- في عام ١٣٨٧ هـ / ١٣٨٨ هـ لما تخرج من كلية الشريعة أختير للقضاء في مدينة النبي ﷺ فصدر أمر ملكي بتعيينه في القضاء في المدينة المنورة فاستمر حتى عام ١٤٠٠ هـ .
- ٣- في عام ١٣٩١ هـ عُيِّن مدرساً في المسجد النبوي الشريف فاستمر حتى عام ١٤٠٠ هـ .
- ٤- في عام ١٣٩١ هـ صدر أمر ملكي بتعيينه إماماً وخطيباً في المسجد النبوي الشريف فاستمر حتى مطلع عام ١٣٩٦ هـ .
- ٥- في عام ١٤٠٠ هـ صدر أمر ملكي بتعيينه وكيلاً لوزارة العدل .
- ٦- في عام ١٤٠٥ هـ صدر أمر ملكي بتعيينه ممثلاً للملكة في مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي واختير رئيساً للمجمع .
- ٧- في عام ١٤٠٦ هـ عين عضواً في المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي وكانت له في أثناء ذلك مشاركة في عدد من اللجان والمؤتمرات داخل المملكة وخارجها ودرّس في

المعهد العالي للقضاء وفي الدراسات العليا في كلية الشريعة بالرياض في بعض السنوات .
٨- في عام ١٤١٢ هـ صدر أمر ملكي بتعيينه قاضي تمييز ، فلم يرغب العمل في التمييز ،
وصدر على إثر ذلك أمر بتعيينه عضو في هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء
فباشر عمله هناك .

منهجه في عمله:

تميز الشيخ - رحمه الله - بالإنصاف والنزاهة والعدالة في قضائه وفي القيام بأعمال
وكالة وزارة العدل ، لم يكن مجاملاً لأحد ولا محابياً ، لا يرفع ثناء أحد أو مدحه ، وإنما
يسعى لإصابة الحق ، حتى وإن غضب غيره ، لذا كان البعض ممن تعامل مع الشيخ أو
تقاضى عنده لا يرتاح له كثيراً ، بل قد يصفه بعضهم بالجفاء ويصفه بعضهم بعدم المرونة ،
وهو لا يكثر لهذا ولهذا ، في منهج فريد في التعامل والقضاء واتخاذ القرار ، حتى أن
هذا المنهج المنصف انسحب على مواقفه في ردوده العلمية ومناقشته البحثية فقد يختلف
مع بعض المشايخ وطلبة العلم ولا يمينه محبته وعلاقته من أن يبين الحق ويجليه ولا يكتمه
حتى وإن خالفه ، ولا موافقة من يختلف معه عند الناس في المنهج من موافقته ، في غير
تعصب إلا للدليل والحق الذي يقصده ، وهذا ظاهر في مؤلفاته وردوده التي يشير فيها
إلى بعض المسائل الخلافية القديمة والحديثة .

صلة الشيخ بالعلماء والمكتبات:

كان تعلق الشيخ الشديد وحبه الجم ينصب على حب ارتياد المكتبات ولقاء العلماء ،
وقد نشأ معه الحب والتعلق منذ عمله في مكتبة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وقد
كانت بعد ذلك مكتبة الشيخ محمد بن هديهد الرفاعي بمكة المكرمة محط رحله ، فما كان

يأتي مكة المكرمة إلا ويأتي المكتبة للاستفادة منها ومما فيها من كتب ومخطوطات نادرة ولقاء صاحب المكتبة فضيلة الشيخ محمد الرفاعي القاضي السابق بالمحكمة الكبرى بمكة المكرمة، ولقاء العلماء الذين كانوا يرتادون المكتبة وينزلون ضيوفاً على صاحبها الشيخ الرفاعي، فقد كان الشيخ بكر يلتقي في المكتبة أكابر علماء العالم الإسلامي أمثال الشيخ الغماري وإخوانه من أسرة آل غماري، والشيخ المحدث الألباني وقد كان يحرص على مناقشتهم والاستفادة منهم وإفادتهم بما عنده، وكان المشايخ من أساتذة جامعة أم القرى وطلبة العلم فيها وفي غيرها يتعاملون بحضور الشيخ بكر فيتوافدون إلى المكتبة للاستفادة والسؤال والمناقشة وكان الشيخ بكر يستفيد ويفيد مما في المكتبة ومن يرتاد المكتبة ومن صاحبها الشيخ الرفاعي، وقد أخبرني الشيخ الرفاعي أنه كان يجد عنده كتب ومخطوطات لا يجدها في غيرها، وقد أخبرني أنه أعطاه مخطوطات فقام بتحقيقها وطبعها، كتراجم علماء الحنابلة للشيخ ابن عثيمين .

صلته بالكتاب:

كان لزوم الكتاب والتأليف من أحب الأعمال لديه التي نفع الله بها الأمة؛ لذا اشتغل الشيخ بالتحقيق والتأليف جمعاً وبذلاً للعلم حتى بلغت مؤلفاته وتحقيقاته قرابة الثلاث مئة مؤلف وتحقيق في التوحيد والحديث والفقه واللغة والمعارف المختلفة، وفيما يلي ذكر شيء من أبرزها:

- ١- (تحقيق فتح الله الحميد المجيد في شرح كتاب التوحيد) للشيخ حامد بن محمد الشارقي - رحمه الله تعالى - في مجلد .
- ٢- تحقيق السابلة إلى معرفة علماء الحنابلة للشيخ صالح بن عبدالعزيز بن عثيمين

المكي - رحمه الله تعالى - في مجلدين .

٣- (الأجزاء الحديثية) مجلد فيه خمس رسائل .

٤- خمسة عشر جزءاً في فقه القضايا المعاصرة : (في ثلاث مجلدات فيها خمس عشرة

قضية فقهية مستجدة في خمس عشرة رسالة) .

صفاته الخلقية والخلقية:

كان متوسط الطول، وهو إلى الطول أقرب، حنطي اللون، متوسط اللحية، يغلب عليها الشيب في آخر حياته، عريض المنكبين ليس بالمتين وليس بالنحيل، في نظره حدة، وفي فكره دقة، يألف العزلة ويكره الخلطة لولا ما كان يضطره إليه عمله، لا يحبذ أن يزور ولا أن يُزار، حتى قيل عنه أنه ليس له صديق، قلت: بل له أصدقاء كثير، أوفياء هم أنسه وسلوته، كما كان يقول عن نفسه، أنا سلوتي في مكتبي، وبين كتيبي، فكل كتاب في مكتبته له معه قصة وأسرار وحكمة، كل كتاب له منزلة في قلبه، وخصوصاً الكتب كتبها أو حققها فإنه عاش معها زمناً يقلب صفحاتها، ويعيد ويكرر ما سطره على طياتها. وثمة أصدقاء آخرين لا يفارقونه لا في إقامته ولا في سفره، قلمه ونظارته، فأكرم بهما من صاحبين لم يُغيّر ولم يُبدل مع ما يلاقونه من مشاق وسهر وسفر وتعب وإرهاق. وقد تميز بحرصه على وقته فكان أشد حرصاً على وقته من بعضهم على ماله، لذا قلت خلطته إلا ما فيه فائدة وعلم ومعرفة، فكان لا يضيع وقته إلا بما يفيد، ومما تميز به الورع، يظهر هذا في حياته وسيرته، فهو مع انه كان مسؤولاً، لم يكن له صورة في الصحف، أو أي ظهور إعلامي، إلا من خلال المؤتمرات الرسمية التي كانت تصور دون رغبة منه، ومن صور عدم الإظفاء على نفسه أي لقب علمي أو مركز ومسؤولية، فقد كان يكتفي

باسمه فقط .

ومن صور الورع لديه ، أنه كان لا ينفرد بالفتوى ، ولم يكن يفتي إلا من خلال الفتاوى الجماعية التي كانت تصدر من دار الإفتاء وهيئة كبار العلماء ، بل إنه لم يجلس على كرسي التدريس والإفتاء في الحرم المكي المخصص للمشايخ من أعضاء اللجنة الدائمة للإفتاء .

مرضه ووفاته:

أصيب الشيخ بورم في الرأس ، وأجريت له عملية جراحية وأزيل الورم ، لكن بقت بعض آثاره ، فكان يشق عليه المشي ، فكان يتنقل بالكرسي المتحرك ويصلي به ، وأحياناً يشق عليه الوصول إلى المسجد فيصلي في البيت ويؤمه بعض أولاده . وعلى إثر ذلك أعفي من منصبه ، فتنفرغ رحمه الله لمكتبته ، فطبع مجموعة من الكتب والرسائل التي كتبها وأكملها أثناء مرضه ، وهذا يدل على الهمة العالية التي امتاز بها . حتى وافاه الأجل المحتوم يوم الثلاثاء الموافق للسابع والعشرين من محرم العام التاسع والعشرين بعد الأربعمئة والألف وقد صلي عليه في المسجد الذي بناه على نفقته ، وهو قريب من منزله بحي حطين بشمال الرياض في نفس اليوم بعد صلاة العشاء ، بل إن وفاته كانت في وقت متأخر من النهار ، ومع هذا عَجَّل بالصلاة عليه في ذلك اليوم ، وكان ذلك إنفاذاً لوصيته التي أوصى بها ، فقد ذكر لي أحد أبناء الشيخ أن والده أوصى بتعجيل تجهيزه ودفنه وأن لا يشاع خبر وفاته ويصلى عليه في مسجده الذي بناه والذي هو قريب من منزله ، وأن يؤم الناس في الصلاة عليه زوج ابنته وهو أحد طلبة العلم وفقه الله . وقد نُفِذت وصيته حسب ما أوصى .

وقد يستغرب البعض مثل هذه الوصية وما هو الدافع إليها وهل له سلف فيها؟ قلت :

ومثل هذه الوصية أوصى بها أحد مشايخ الشيخ بكر وهو الشيخ العلامة ناصر الدين الألباني، وليس بعيداً أنه تأسى به في ذلك. فقد جاء في وصية للشيخ الألباني: «أوصي زوجتي وأولادي وأصدقائي وكل محب لي إذا بلغه وفاتي أن يدعو لي بالمغفرة والرحمة.. وأن يعجلوا بدفني، ولا يخبروا من أقاربي وإخوتي إلا بقدر ما يحصل بهم واجب تجهيزي، وأن يتولى غسلني عزت خضر جاري وصديقي المخلص، ومن يختاره هو لإعانتته على ذلك، وأختار الدفن في أقرب مكان، لكي لا يضطر من يحمل جنازتي إلى وضعها في السيارة. وعلى من كان في البلد الذي أموت فيه ألا يخبروا من كان خارجها من أولادي فضلاً عن غيرهم إلا بعد تشييعي، حتى لا تتغلب العواطف، وتعمل عملها فيكون ذلك سبباً لتأخير جنازتي»(١).

وقد ظهر سبب حرص الشيخ بكر - رحمه الله - على عدم الإعلان وإشعار من كان خارج البلد حتى لا تؤخر الجنازة وحتى تكرم بتعجيل دفنها. ومع هذا كله فقد تعالّم الناس بوفاته من خلال رسائل الجوال والإنترنت، وسارع الناس شيباً وشباباً، صغاراً وكباراً، ورأيت أسراباً من السيارات قادمة من كل الجهات إلى حي حطين في الرياض الذي يسكنه، وكل منهم يسأل عن موقع المسجد. وقد اكتظ المسجد بالمصلين، وصلى أكثرهم خارجه في الشوارع لمحيطه بالمسجد، وازدحمت الشوارع بالسيارات ازدحاماً لم يرى له مثيل حتى أن كثير منهم لم يتمكن من إدراك صلاة الفرض والجنازة لكثرة الناس وشدة الزحام، ولصغر المسجد، وأظن والله أعلم أنه لم يتمكن من الصلاة عليه إلا ربع من قصد وحضر الصلاة عليه. وتذكر الصحف

(١) أساس الباني في تراث الألباني، د. أحمد صبري، دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، ١/١٦.

أنه حضر جنازته عشرين ألف، وشيع بعد ذلك إلى المقبرة القريبة، مقبرة الدرعية فرحمة الله على من كان علماً في القضاء، علماً في جمع العلم وبذله، لزييم الكتاب والمحراب.

مصادر الترجمة:

- ١- الترجمة المنشورة على الشبكة العنكبوتية، ونشرت بعض المجالات المحلية، وأصلها ترجمة أملاها الشيخ بكر عن نفسه وهي مختصرة.
- ٢- إفادات من زميله فضيلة الشيخ محمد بن هديهد الرفاعي القاضي السابق في المحكمة الكبرى بمكة المكرمة، صاحب المكتبة العامرة في مكة التي كان الشيخ بكر يقصدها ليلتقي بالمشايخ فيها ويناقشهم فيستفيد ويفيد.
- ٣- إفادات من ابنه أحمد بن بكر أبو زيد وفقه الله.